﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التَّوبة: 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين بشاعة نسبة الولد إلى الله تعالى، واتّخاذهم الأحبارَ والرُّهبان أربابًا

لمَّا ذكر اللهُ تعالى في الآية السَّابقة المقالةَ الشَّنيعة التي قالها اليهودُ والنَّصارى، في زَعْمِهم أنَّ لله تعالى ولدًا، وعَجَّبَ من صنيعِهم كيف يُصرَفون عنِ الحقِّ إلى الباطِلِ، ذكر في هذه الآية بيانَ سَبَبِ هذا الضَّلالِ، وهو أنَّهم اتَّخذوا أحبارَهُم ورهبانَهُم بمنزلَةِ الأربابِ، في تحليلِ الحرامِ وتحريمِ الحلالِ، وتشريعِ الأقوالِ المنافيَةِ لدِينِ الرُّسُلِ ﷺ، فيتْبَعونَهُمْ ويَتْرُكونَ الحقَّ الذي جاءَتْ به الرُّسُلُ[1]. وممَّا يُذكَر في المناسبة أيضًا، أنَّه لمَّا ذَكَرتِ الآيةُ السَّابقة شِركَ أهلِ الكتاب في عبادتهم للمسيح ﷺ، جاءت هذه الآيةُ بلونٍ آخَرَ مِنَ الشِّرك في أحكامه، حيث اتَّخذوا علماءَهم وعُبَّادَهم أربابًا مِن دون اللهِ؛ في تحليل الحرام وتحريم الحلال.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾: (الحاءُ والباءُ والرَّاءُ): تدورُ اشْتِقاقاتُها على أثَرٍ في حُسْنٍ وبهاءٍ، ومنه: الشَّيءُ المُحَبَّرُ؛ وهو المُزيَّنُ، والحِبْرُ: هو المِدادُ الذي يُكْتَبُ بِهِ؛ لما فيه مِن أثَرٍ على الورَقِ ونَحْوِه، ويُقالُ لِلَّذي يكْتُبُ بالحِبْرِ: حِبْرٌ وحَبْرٌ، وهو العالِمُ، وجَمْعُهُ: أحبارٌ[2]، وسُمُّوا أحبارًا لما يَبْقَى مِن أثرِ علومِهم وآثارِ أفعالِهم الحسَنَةِ المُقْتَدَى بِها

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حبر).

في قلوب الخَلْق، ومنه قولُ اللهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]، والمُرادُ بِهِم هُنا: عُلَماءُ اليَهودِ[2].

2) ﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾: (الرَّاءُ والهاءُ والباءُ): تدلُّ تَصْريفاتُها على أَصْلَيْنِ؛ أحدهُما: الخَوْفُ، والآخَرُ: الدِّقَّةُ والخِفَّةُ[3]، ومِنَ الأوَّلِ قولُهُم: رَهِبْتُ الشَّيءَ أَرْهَبُهُ رَهْبَةً ورَهَبًا، أي: خِفْتُهُ[4]، والرَّهْبَةُ: هي الخَوْفُ المقرونُ بالعَمَلِ[5]، ومنه: الرَّاهِبُ؛ وهوَ عابِدُ النَّصارَى[6]، وسُمِّيَ بذلك لأنَّ الذي حَمَلَهُ على الانْقِطاعِ إلى العبادَةِ، هو الخَوْفُ مِنَ اللهِ تعالَى، ويُجْمَعُ على: رُهْبانٍ، ورهابينَ، ورَهابنَة، ورَهْبانين[7].

3) ﴿أَرۡبَابٗا﴾: (الرّاءُ والباءُ): تَدورُ تَصاريفُها على مَعانٍ، منها: إِصْلاحُ الشَّيءِ والقيامُ عليه، ومنه يُقال: رَبَّ فلانٌ ضَيْعَتَهُ؛ إذا قامَ على إصْلاحِها[8]، ومنه: التَّربيَةُ؛ وهي إنشاءُ الشَّيءِ حالًا بعْدَ حالٍ إلى حَدِّ التَّمام، ولا يكونُ ذلكَ إلَّا بإصْلاحٍ وعنايَةٍ[9]، ومنه: سُمِّي الرَّبَّانيُّونَ بِهَذا الاسْمِ؛ لقيامِهِم بتَدْبير أُمورِ النَّاسِ وإصْلاحِها[10]، ويُطْلَقُ الرَّبُّ بِمَعْنَى: المعبودِ؛ وذلك لما فيه مِن وصْفِ إصْلاحِ عابديهِ، وقيامِه على تدْبيرِ شؤونِهم، ولا يُطْلَقُ مُعرَّفًا باللَّام إلَّا على اللهِ سبحانَه، ومِنْ هذا المعنى: قولُ اللهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ معناهُ: اتَّخذوهُمْ معبوداتٍ يَلْتَزِمونَ أوامرَهُمْ ونواهيَهُم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أخبر اللهُ تعالى في هذه الآية أنَّ اليهود والنَّصارى اتَّخذوا العلَماءَ والعُبَّادَ أربابًا، يَشْرَعونَ لهم مِنَ الشَّرائِعِ والأقوالِ المُنافيَةِ لدينِ الرُّسُل، فَيَتَّبِعونَهُم عليها ويتْركونَ

(1) الرَّاغب، المفردات: (حبر).
(2) الخضيريّ، السِّراج في بيان غريب القرآن، ص: 76.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رهب).
(4) الخليل، العين: (رهب).
(5) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلتها، ص: 59.
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (رهب).
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (رهب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رب).
(9) الرَّاغب، المفردات: (رب).
(10) نَشوان الحِمْيَريّ، شمس العلوم: (رب).

الشَّرْعَ المُنزَّلَ، واتَّخذوا المسيحَ عيسَى ﷺ إلَهًا، فعَبَدوه مِن دون اللهِ سبحانَه، وقد أمَرَهم اللهُ ﷻ بعبادَتِهِ وَحْدَهُ دونَ ما سواهُ، فهو الإلَهُ المستحقُّ للعِبادَةِ، لا إلهَ إلَّا هوَ، تَنَزَّه وتَقَدَّس وتَعالَت عَظَمَتُهُ عَن شِرْكِهِم وافْترائِهِم[1].

بيانُ اتِّخاذِ النَّصارى واليهود أربابًا مِن دون الله المعبود

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ عمَّا قبلَه:

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استِئنافًا بيانيًّا، فبيْنَ الجُمْلَتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلكَ أنَّ اللهَ سبحانَه لمَّا حكَى مقالةَ أهلِ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى، في زَعْمِهِم أنَّ للهِ تعالى ولدًا؛ أَوْرَثَ ذلك في نفوسِ المُتَلقِّين سؤالًا؛ وهو: فما سَبَبُ اتِّفاقِ أُمَّةٍ كبيرةٍ كثيرةِ العَدَدِ على هذا القَوْلِ البَيِّنِ البُطْلانِ؟ فبيَّن اللهُ سبحانَه سببَ ذلكَ، وهو أنَّهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ يَشْرَعونَ لهم مِنَ العقائدِ والأعمالِ والأقوالِ المُنافيَةِ لما جاءَتْ بهِ الرُّسُلُ، فيَتَّبِعونَهُم عليها[2].

سَبَبُ ضَلالِ أَهْلِ الكِتابِ، اتِّخاذُهُمُ الأَرْبابَ مِن دون العليِّ الوهَّاب

دلالَةُ الخَبرِ في قولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

الجملةُ الخبريَّةُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ واردةٌ مُرادًا بها زيادَةُ التَّشْنيعِ عليهم، وبيانُ شِدَّةِ جراءَتِهِمْ على الباطِلِ، وفيها: زيادَةُ تقريرٍ لما سلَفَ مِنْ كُفْرِهِمْ باللهِ تعالى[3].

زيادَةُ التَّشْنيعِ على أَهْلِ الكِتابِ؛ لجَراءَتِهِم على الباطِلِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاتِّخاذِ:

عُبِّرَ بالاتِّخاذِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ومعناه: حَوْزُ الشَّيءِ وتحصيلُه، وهو بصيغَةِ الافْتِعالِ التي تَدُلُّ على التَّكلُّفِ في فعلِ الشَّيءِ، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ فِعْلَهُمْ

شِدَّةُ انْحِرافِ أَهْلِ الكِتابِ، بالرِّكونِ لمشرّعين سواه

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 191.
(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/169.

مناقِضٌ لِلْفِطْرَةِ السَّليمَةِ، ومخالِفٌ للشَّرائعِ المستَقيمَةِ؛ حيثُ إنَّهم قَدْ كَلَّفوا أنفسَهُمُ العدولَ عن توحيد اللّٰهِ تعالى وعبادته، القادرِ على كلِّ شيءٍ، إلى مَن هو مِنْ جنْسِهم في الخِلْقَةِ[1]، وهذا يدلُّ على أنَّ الأَتْبَاعَ تمسَّكُوا بأحبارهم ورُهبانهم، وجعلوا لهم الكلمةَ فيهم، والعقلَ المُدَبِّرَ لهم؛ فكلامُهم وأحكامُهم لا مُعَقِّبَ عليها عندَهم، وهذا دليلٌ على فساد عقيدتهم، وشدَّةِ انْحرافِهِمْ، وعظيمِ مُعانَدَتِهم؛ حيثُ إنَّ داعيَ الفِطْرَةِ يَدْعوهُم إلى الحقِّ، والشَّرائعَ تُنبِّهُهُم على مواطِنِ الخَيْرِ، ومع ذلك نازعَتْهُمْ نفوسُهُم الخبيثَةُ إلى مخالفَةِ ذلكَ ومُنابذَتِه.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي:

عُبِّر بالفعْلِ الماضي: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، مِن قولِ اللّٰهِ سبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للإيماءِ إلى تحقُّقِ هذا الفِعْلِ الشَّنيعِ منهم، وأنَّهم حَقيقونَ بالذَّمِّ والتَّوبيخِ.

فَـدَاحَـةُ صَنيعِ أَهْـلِ الكِتابِ، جَـعَـلَـتْـهُـمْ مُـسـتَـحِـقِّـين للذَّمِّ والتَّوْبيخِ والعِتاب

بلاغة اللَّفِّ والنَّشْرِ:

في قول اللّٰهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لَفٌّ ونَشْرٌ مُرتَّبٌ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ لفظَ الأَحْبارِ، يختصُّ في عُرْفِ الاسْتِعْمالِ بعلماءِ اليهودِ، ولفظَ الرُّهْبانِ بعُبَّادِ النَّصارى[2]، فكانَ قولُ اللّٰهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ راجعًا إلى اليهودِ والنَّصارى المذكورين قبلُ، في قوله سبحانَه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾، على إرادَةِ التَّوزيعِ، والمعنى: اتَّخذَ اليهودُ أحبارَهُمْ أربابًا مِنْ دونِ اللّٰهِ سبحانَه، واتَّخذَ النَّصارَى عُبَّادَهُم أربابًا مِنْ دونِ اللّٰهِ تعالى، وتُرِكَ بيانُ ذلكَ ثِقَةً بأنَّ السَّامِعَ يَردُّ كُلَّ مَعْنًى إلى موضِعِهِ.

حكمةُ البيانِ وروعتُه، في رَدِّ كلِّ معنًى إلى موضعِه مِنَ السِّياق

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/441.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/30 - 31، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/441.

دلالةُ التَّعبير بضمير الجماعة:

دلَّ التَّعبير بضمير الجماعة في ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ على أنَّ هذا الشِّركَ في أمر الأحكام، من ناحية التَّحليل والتَّحريم، هو مسلكٌ جماعيٌّ تبنَّاه جميعُ أهلِ الكتاب، وهذا يدلُّ على فساد طبيعتهم، فضلًا عن عقيدتهم؛ لغياب مَن يأمر بالمعروف وينهى عنِ المنكر، قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 79].

لايُحلِّل ويُحرِّم إلَّا الخالقُ البصير، لأنَّه أعلمُ بمن خلق، وهو اللَّطيف الخبير

دلالَةُ تَقْديمِ الأَحْبارِ على الرُّهْبانِ:

قُدِّمَ ذِكْرُ الأحْبارِ على الرُّهْبانِ، في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ ليُناسِبَ ذلكَ تقديمَ اليهودِ على النَّصارَى، المذكورَ قَبْلُ؛ وذلك لما عُلِمَ مِن أنَّ الأحبار عُلماءُ اليهودِ، والرُّهْبانَ عُبَّادُ النَّصارى، وفي تقديم الأحْبارِ - وهُمُ العلَماءُ - زيادَةٌ في تشنيعِهم وتوبيخِهم؛ لأنَّ الأصْلَ أنَّ العُلَماءَ أَعْرَفُ الخَلْقِ بالحقِّ، فلا تَقعُ مِنْهُمْ منافاةٌ له، وهؤلاء الأحبارُ قد صَدَرَ منهم ما يُخالِفُ أصلَ التَّوحيدِ، بنِسْبَتِهم الولدَ للّه تعالى، فكان فِعْلُهم أقْبَحَ، وصنيعُهم أشْنَعَ، وفيه دلالة على أفضليَّة العلماء على العُبَّاد، إذا هم قاموا بدورهم في الإرشاد والبيان.

مُخالَفَةُ العُلَماءِ لِلْحَقِّ المبين، مُنتَهى القُبْحِ والنُّكوصِ المهين

دلالةُ الإضافةِ في (الأحبار) و(الرُّهبان):

دلَّتِ الإضافةُ في أحبارهم ورهبانهم، في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾، على أنَّهم همُ الذين صنعوهم، وأَعْطَوْهم هذه المكانةَ؛ فهي إضافةُ اكتسابٍ ومنافع، وليست مِن باب الاصطفاء والاختيار، وليُفَرَّق بينَ مَن كان على المنهج الصَّحيح، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: 44]، وبينَ مَن كان على الباطل.

كانت الرَّهبنَةُ قَداسةً، فانقلبت إلى تزييفٍ وخساسةٍ

سِرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿أَرْبَابًا﴾:

كلُّ مَن ادَّعَى الرُّبوبيَّة العليا مِن بني الإنسان، هَلَكَ وتوارى في تلافيف النِّسيان

قولُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، عبَّر ضِمنَه بلفظ: ﴿أَرْبَابًا﴾ ليُشيرَ إلى ما كان لهم مِن دَوْرٍ واضح، وسلطانٍ مبسوط على أتباعهم، بحيث جَعَلُوا إلى أيديهم أمرَ هؤلاءِ الأتباع، فيما هو من صميم العقيدة، فيَغْفِرون لمَن شاؤوا مِنَ المذنبين، ويَحْرِمُون مَن شاؤوا مِن هذا الغُفران، وقد أدَّى ذلك إلى أن أصبح الأحبارُ والرُّهبان آلهةً، يُطْلَبُ رضاها، ويُتَقَرَّب إليها بالقُرُبات، حتَّى تُنَال منهم المغفرةُ والرِّضوان، ولمَّا كان هذا الوضع يُشبِهُ الوضعَ بينَ المؤمنِ وربِّه، عُبِّرَ عنهم بالأرباب؛ نظرًا لهذه الحالةِ، أو لهذا الوضع الذي يكون بينَ الأحبار والرُّهبان وأتباعهم[1].

سِرُّ تَقْديمِ لَفْظِ: ﴿أَرْبَابًا﴾ في الآية:

هنالكَ فَرْقٌ بينَ ربوبيَّة التَّعاليم، وربوبيَّة العبادة

قُدِّمَ لفظُ ﴿أَرْبَابًا﴾ في قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، فَلَمَ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (اتَّخَذوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْبابًا مِنْ دونِ اللهِ)؛ لئلّا يُفْهَمَ مِنْ ذلك أنَّ الرُّبوبيَّةَ التي اتَّخذوها كانَت واحدةً في الجميعِ، والواقعُ أنَّ اتِّخاذَهُم المسيحَ ربًّا، كانت رُبوبيَّةَ عبادَةٍ، بخلافِ اتِّخاذِهِم الأحبارَ والرُّهْبانَ أربابًا، فهيَ ربوبيَّةُ تعاليمَ[2]، كما قُدِّمَ قولُه تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على المسيح ؛ للإشارة إلى أنَّهم اتَّخذوه بمرتبةٍ مِنَ الرُّبوبيَّة التي نحلوها له، غيرَ ما اتَّخذوه مِن أربابهم، فما نحلوه له مِن ربوبيَّةٍ كان عبادةً له، وما اتَّخذوا مِن أحبارهم مِن ربوبيَّة كان أخذًا للتَّعاليم منهم[3]، قال عديُّ بنُ حاتم: "أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو يقرأ سورةَ براءة، فلمَّا انتهى إلى قوله تعالى:

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 4/443.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3284.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3283.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قلتُ: يا رسولَ اللّه، لم يكونوا يعبدونهم، فقال ﷺ: «أليس يُحرِّمون ما أحلَّ اللّهُ فتُحرِّمونَهُ، ويُحِلُّون ما حَرَّم اللّه فتَستَحِلُّونَه؟»، فقلتُ: بلى، قال: «ذلكَ عبادتُهم»"[1].

دلالَةُ تَخْصيصِ عيسَى عليه السلام بِالذِّكْرِ:

اخْتِصاصُ النَّصارَى بِالإِنْحِرافِ؛ لاتِّخاذِهِم الأَربابَ مِنْ دونِ اللهِ تعالى

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، خُصَّ فيه عيسَى عليه السلام بالذِّكْرِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ اليهودَ لم يفْعَلوا ذلك بِعُزَيْرٍ[2]، وللتَّفريق بينَ اتِّخاذِ اليهودِ واتِّخاذ النَّصارى؛ فكلٌّ منهم مختلفٌ عنِ الآخر؛ فربوبيَّةُ المسيحِ عند أَتْبَاعِه لها وضعٌ خاصٌّ غيرُ الوضعِ الذي للأحبار عندَ اليهود، والرُّهبانِ عند النَّصارى، فهولاءِ الأحبارُ والرُّهبانُ ليسوا أربابًا عند أَتْباعِهم بصورته القاطعة، وإنَّما هم أشبهُ بالأرباب، أمَّا المسيحُ فهو عند أتباعه رَبٌّ بمعنى الكلمة.

نُكْتَةُ تَأْخيرِ ذِكْرِ عيسَى عليه السلام:

دِقَّةُ البَيانِ الزَّمَخْشَرِيِّ في التَّصَرُّفِ في الأَلْفاظِ تَقْديمًا وَتَأْخيرًا

أُخِّرَ ذِكْرُ عيسى عليه السلام في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، مع أنَّ اتِّخاذَهُم لعيسى عليه السلام ربًّا معبودًا أقوى مِن مُجرَّدِ الطَّاعةِ في تحليلِ الحرامِ وتحريمِ الحلالِ؛ لكَوْنِهِ مُخْتصًّا بالنَّصارى، لم يشْرَكْهُمْ في ذلك اليَهودُ[3].

دلالَةُ نِسْبَةِ عيسى عليه السلام إلى أُمِّهِ:

إبطالُ ألوهيَّةِ عيسى عليه السلام، وأنَّه عبدُ اللهِ ورسولُه

نُسِبَ عيسى عليه السلام إلى أُمِّهِ، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾؛ للإشارَةِ إلى كَوْنِهِ

(1) قال الرَّبيع: "قلتُ لأبي العالِيَة: كيف كانت تلك الرَّبوبيَّةُ في بني إسرائيلَ؟ قال: إنَّهم ربَّما وجدوا في كتاب الله تعالى ما يخالف أقوالَ الأحبارِ، فكانوا يأخُذون بأقوالهم، ويترُكون حُكمَ كتابِ الله". يُنظر: أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60.

إنسانًا، وأنَّهُ قد وُلِدَ كما وُلِدَ غَيْرُهُ مِن بني آدَمَ، وإنِ امْتازَ عنهم بكونِهِ مِن غَيْرِ أَبٍ، فكان في ذلك إشْعارٌ بكونِهِ مَرْبوبًا، والمربوبيَّةُ منافيَةٌ للرُّبوبيَّةِ، وفي هذا كُلِّه إيذانٌ بكمالِ سخافَةِ عقولِهِم، والحُكْمِ عليهم بغايَةِ الجَهْلِ والحُمْقِ[1].

دلالَةُ الإيجازِ في الآية:

﴿وَٱلۡمَسِيحَ﴾ مِن قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، معطوفٌ على ﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾، ومفعولُه الثَّاني بالنِّسْبَةِ لِلْمَسيحِ محذوفٌ، والتَّقديرُ: اتَّخذوهُ ربًّا مِنْ دونِ اللّهِ تعالى[2]، وحُذِفَ المفعولُ الثَّاني لدلالَةِ المذكورِ عليه.

طَيُّ الألْفاظِ التي دَلَّ الكَلامُ على تَعْيينِها اقْتِصادًا في اللَّفْظِ

نُكْتَةُ بناءِ الفِعْلِ لِلْمَفْعولِ:

بُنِيَ الفِعْلُ ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ لِلْمَفْعول مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾؛ للعِلْمِ بِهِ، وتعظيمًا لشأْنِه، والمعنى: فَعَلَ اليهودُ والنَّصارى ما فعَلوه، والحالُ أنَّ الذي له كُلُّ الأمْرِ مِنَ الأدلَّةِ النَّقليَّةِ والعقليَّة، قَدْ أَمَرَهُمْ أَنْ لا يَعْبُدوا إلَّا الإلَهَ الواحِدَ الحقَّ[3].

مُخالَفَةُ اليَهودِ والنَّصارَى لِلْأَحْكامِ الشَّرْعيَّةِ، استخفافٌ بالبَراهينِ النَّقْليَّةِ والعَقْليَّةِ

سِرُّ التَّعبير بالضَّمير، في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾:

عُبِّرَ بالضَّمير دون الظَّاهر، في قوله تعالى: ﴿أُمِرُوٓاْ﴾؛ لإفادة العموم، لأنَّه يعود إلى اليهود والنَّصارى والأربابِ الذينَ اتَّخذوهم، مِنَ الأحبار والرُّهبان والمسيح ابن مريم، فهؤلاءِ جميعًا مأمورون أن يعبدوا إلهًا واحدًا، لا إلهَ إلَّا هو، سبحانَه عمَّا يشركون.

التَّوحيدُ مأمورٌ اللهِ لجميعِ العابدين، في كلِّ حين

دلالَةُ القَصْرِ:

في قَوْلِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾، قصرُ أَمْرِهِمْ على عبادَةِ الإلَهِ الواحدِ، وهو من قصرِ الصِّفَةِ على الموصوفِ،

تَوْحيدُ اللهِ ﷻ أَعْظَمُ ما بُعِثَتْ بِهِ الرُّسُلُ لِصَلاحِ البشريَّة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3284.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/262.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/442.

قصرًا حقيقيًّا ادِّعائيًّا، كأنَّهم لم يُؤمَروا إلَّا بأمرٍ واحدٍ، ومع ذلك فقد أخلُّوا به إخلالًا عظيمًا، وجاءَ القَصْرُ بالنَّفْيِ والاسْتِثْناءِ، وهو مُسْتَعْمَلٌ في الأَصْلِ لما يُنْكِرُه المُخاطَبُ، مع أنَّ أمرَ اللهِ تعالى لهُم بالتَّوحيدِ لا يَخْفَى عليهم؛ لِكَونِه أعظمَ ما بُعِثَتِ الرُّسُل بِهِ؛ تَنْزيلًا لهم مَنْزِلَةَ المُنْكِرينَ بِعُدُولِهِم عنه إلى الشِّرْكِ باللهِ تعالى.

دلالَةُ جُمْلَةِ الحالِ:

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾، في محلِّ حالٍ مِنَ الواوِ في ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، وهذِهِ الجُمْلَةُ هي محطُّ التَّشْنيعِ والإنْكارِ عليهم، بأنَّه لا عُذْرَ لهم فيما زَعَموه؛ وذلك لأنَّ وصايا كُتُبِهِم مَليئَةٌ بالتَّحْذيرِ مِن عِبادَةِ غيرِ اللهِ سبحانَه[1].

لا عُذْرَ في الشِّرك لأَهْلِ الكِتابِ؛ وكُتُبُهُمْ طافِحَةٌ بِالتَّحْذيرِ منه والعتاب

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ عمَّا قبلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استِئنافًا بيانيًّا، فَبَيْنَ الجُمْلَتَينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، والغرضُ: تَعْليلُ الأَمْرِ بِعِبادَةِ اللهِ تعالى وحدَهُ؛ لكونِهِ سبحانَه الإلَهَ الحقَّ، وهو المُسْتَحِقُّ لِلْعِبادَةِ شرعًا وعقلًا[2].

اللهُ ﷻ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبادَةِ، بالأدلَّة الشَّرعيَّة والعقليَّة

دلالَةُ القَصْرِ:

في قولِ اللهِ جلَّ وعلا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ قصرُ الألوهيَّة الحقَّةِ على اللهِ سبحانَه، وذلك لأنَّ خبَرَ (لا) النَّافيةِ للجِنْسِ محذوفٌ، والتَّقدير: (لا إلهَ حقٌّ إلَّا هوَ)، فالقَصْرُ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، وقَدِ اسْتُعْمِلَ فيه أقوى طُرُقِ القَصْرِ، وهو النَّفْيُ والاسْتِثْناءُ؛ لِكَوْنِ الجُمْلَةِ تَقْريرًا لِأَعْظَمِ حَقيقَةٍ في الكَوْنِ، وهي تَوْحيدُ اللهِ ﷻ.

أَعْظَمُ حَقيقَةٍ في الكَوْنِ، هي توحيدُ اللهِ ربِّ الكون

سِرُّ التَّعبير بالضَّمير (هو):

في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، عُبِّرَ بالضَّمير ﴿هُوَۚ﴾ الذي يعود

اليقين باستحقاق اللهِ للعبادة ممَّا اقتضته الفطرة، وأجمعت عليه الشَّرائع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/170.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/262.

على اللّه تعالى؛ للدّلالة على حضوره ﷺ؛ فلا يغيب عن شيء، وهو حاضرٌ في كلِّ شيء، وفيه تأكيدٌ لمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾.

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ:

وُجوبُ العُدولِ عن إرْضاءِ المَخْلوقينَ، إلى إرْضاءِ اللهِ ربِّ العالَمين

قال اللّهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [التَّوبة: 31]، وقال سبحانَه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: 5]، ووجه المغايَرة بينهما: أنَّ آيةَ التَّوبةِ صُدِّرت بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، فلمَّا كان في هذا إيماءً إلى تعَدُّدِ مَعْبوداتِهم؛ ناسَبَهُ بيانُ أَمْرِهم بِقَصْرِ العُبوديَّةِ على إلَهٍ واحدٍ، وهو اللّهُ سبحانَه بقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾، وأُكِّدَتْ وَحْدانيَّتُهُ بقوله ﷻ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، أمَّا آيةُ سورةِ البَيِّنَة، فتقَدَّمَها قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾، فناسبَ ذلك الإرشاد إلى تصفية العمل من النفاق لئّلا يقع التَّفرُّقُ، فقالَ تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾.

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ عمَّا قبلَهُ:

اتِّخاذُ الأربابِ هو عَيْنُ الشِّرْكِ لدى أهل الكتاب

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استِئنافًا يُرادُ به تَنْزيهُ اللّهِ سبحانَه، والتَّبرِّي ممَّا افتَراهُ أهلُ الكتابِ عليه، والتَّصريحُ بأنَّ صنيعَهُم عَيْنُ الشِّرْكِ المناقِضِ للتَّوحيد[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ:

إيغالُ أَهْلِ الكِتابِ في الشِّرْكِ، ووُلُوغُهم فيه حالًا بَعْدَ حالٍ

جاءَ التَّعبيرُ بالْفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾، مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ للدّلالَةِ على اسْتِمْرارِهِم في هذا الشِّرْكِ، وإيغالِهِم فيهِ، وإحْداثِ أَصْنافٍ منه حالًا بَعْدَ حالٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/171.

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ:

دِقَّـةُ البَيـانِ القُـرْآنيِّ في التَّصَرُّفِ في الأَلْفـاظِ، بِما يُلائِمُ المعاني

قال اللهُ سبحانَه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التَّوبة: 31]، وقالَ ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: 68]، ووجهُ المغايَرةِ بَيْنَهُما: أنَّ آيةَ التَّوبةِ، تقدَّمها قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، فلمَّا كان ذلك هو اللهَ سبحانَه؛ ناسَبَهُ أَنْ يَعودَ الضَّميرُ عليه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، بِخِلافِ آيَةِ القَصَصِ؛ فقد صُدِّرتْ بِقَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾، فكانَ الظَّاهِرُ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: (ﷻ)، ولَكِنْ لمَّا كانَتِ الرُّبوبيَّةُ أَكْثَرَ تَعَلُّقًا بالعَطاءِ والإِنْعامِ والتَّربيَةِ، وكان الاِسْمُ الأَعظم (اللهِ) جامِعًا لِصِفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكَمالِ؛ ناسَبَهُ العدولُ عنِ التَّعْبيرِ بِالْمُضْمَرِ، إلى التَّصْريحِ بِالاِسْمِ الأَعظم (اللهِ)، فَقالَ سبحانَه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»